

# المسرح والتلقي والأعراف الثقافية

هناك حاجة إلى منهج نقدي أكثر إبداعاً من المناهج السائدة الآن، وهو مطمح صعب، خاصة في عالمنا العربي

التلقي أمر بالغ الأهمية في العملية الإبداعية، في غيابها لا يمكن الحديث عن عمل فني أو منتج إبداعي أيا كان. ويلعب التلقي دوراً هاماً في الفن المسرحي، حيث يمثل محوراً يتحرك فيه العمل، إذ من خلال عملية التلقي تُقيم الأعمال، لكن هل هذا التلقي مخول للتقييم؟ سؤال يطرح نفسه في كثير من الأحيان.

عواد علي  
كاتب عراقي



تأثير الثقافة السائدة، فحب الفنون يشغل مكاناً مهماً في المجتمعات المتطورة، وعلى هذا الأساس يصبح الاهتمام بالمسرح دلالة على الذائقة الرفيعة.

إن دراسة دور المسرح في أي نظام ثقافي، وعلاقة المتلقي بالمفهوم العام السائد للمسرح من ناحية، وأشكال معينة من الإنتاج المسرحي من ناحية أخرى تمكن، حسب منظور نظرية التلقي، من الوصول إلى فهم أعمق للعلاقة بين عمليتي الإنتاج والاستقبال.

استناداً إلى ملاحظة بعض المشتغلين في هذا الحقل، فإن الخطابات الثقافية الرفيعة عادة ما ترتبط بالجماعات الاقتصادية الموجودة في مركز السلطة الثقافية، وأن هذه الجماعات هي التي ترسم الحدود الفاصلة بين الثقافة الرفيعة والثقافة الدنيا في المجتمع. وانطلاقاً من هذه الملاحظة، التي لا يمكن تعميمها على المجتمعات كلها، يُفسر فهم الغربيين لطبيعة المسرح، كما حددته هذه الخطابات الثقافية الرفيعة، من خلال تحديد الشفقات المستخدمة في استيعاب الحدث المسرحي وتأويله.

من أفضل الأمثلة على هذا الفهم تلك الدراسة التي أجراها المنظر والباحث الفرنسي باتريس بافيس على عملية التلقي النقدي لعرض مسرحية شكسبير "دقة بدقة" الذي أخرجه المخرج الإنكليزي الشهير بيتر بروك، والتي تكشف عن وجود خطاب نقدي عام وسائد لجأ إليه النقاد الذين لا يزالون يقومون بدور ممثلي الأيديولوجيا الثقافية السائدة، وتعكس قناعاتهم المشتبكة حول المسرح طبيعة مكانتهم في هذه الأيديولوجيا.

لكن ثمة دارسين لا يتفقون مع هذا التعميم حول النقاد، فيشبهون إلى سمة التعددية التي يجدها فيهم، على غرار تعددية المتلقين، فالنقاد الذين يكتبون للقارئ المتخصص، أو أولئك الذين يكتبون للصحف المعارضة قد يختلفون اختلافاً كاملاً، في قناعاتهم وتوقعاتهم، عن كتاب المتابعات الصحفية الذين يتحدثون عنهم بافيس. ويقود ذلك إلى حقيقة مفادها أن كل متلقي له أفق توقع مختلف، ومن ثم يمكن أن يكتشف

الباحث أفق توقعات مختلفة لأنماط متباينة من مشاهدي المسرح داخل المجتمع الواحد.

## الثقافة متغيرة

سبق للناقدة الأميركية سوزان سوليمان أن أكدت على هذه الحقيقة في نقدها لتعريف ياوس لمفهوم أفق التوقع، واصفة إياه، في كتابها "القارئ في النص: مقالات في الجمهور والتفسير"، بأنه مفهوم قاصر لا يرى وجود تعددية للمتلقين في سياق زمني معين.

ولتلافي هذا القصور عنده ترى الناقدة الكندية سوزان بينيت أنه من الممكن الربط بين مفهومه ومفهوم ستانلي فيش عن الجماعة التأويلية، ومن ثم تصبح عملية القراءة، في إطار هذا الربط، عملية تاريخية واجتماعية

في الوقت ذاته، مشيرة إلى تاريخ تلقي مسرحية هارولد بنتر "حفلة عيد ميلاد" التي أدى تغير الجماعة التأويلية، وأفاق التوقعات إلى تجديد الاستجابة الجماهيرية لها.

إلا أن هذا التوفيق بين مفهومي ياوس وفيش ينسب، في رأيي، المفهوم الأول، ويفرغه من مضمونه الأساسي، الذي يقوم على فكرة التلقي التاريخي للعمل الفني، ويستبعد مفهوم المعنى الموضوعي، الذي يتكون بشكل مستقل عن التأويل، أو بمعنى آخر اختلاف استجابة القراء للعمل الفني وتأويله تبعاً لتواتر قراءاتهم له في مراحل زمنية لاحقة، في حين أن مفهوم فيش يقوم على تغير قراء العمل الفني أنفسهم، كما في مثال تغير المتلقين لمسرحية بنتر، ليحظى باستجابة جديدة، وتأويل مغاير، وعلى الرغم من قناعة بينيت

الثابتة بالأطروحات النقيضة لنقد استجابة القارئ أو المتلقي، التي تؤكد على الاختلافات في ردود أفعال المتلقين بانماطه المختلفة، فإنها تترك وجود حدود ثقافية تحكم ردود أفعالهم، سواء إزاء النصوص، أو العروض بصورة عامة، أو إزاء نص، أو عرض بعينه.

لكن هذه الحدود تظل دائماً موضع مناوئة واختيار، ودائماً ما يجري تجاوزها. كما أن الثقافة لا يمكن النظر إليها بوصفها كلاً ثابتاً، أو مجموعة من القواعد الثابتة، بل يجب النظر إليها على أساس أنها في حال دائمة من التدفق والتغير الحتميين.

وعلى نحو مشابه فإن طرائق الإنتاج والتلقي يعاد تشكيلها دائماً، ومن ثم فنحن بحاجة إلى فهم أفضل للتغيرات التي تطرأ على كل منهما. والأمر الذي يجب أن يحظى باهتمام خاص في هذا



كل متلق له أفق توقع مختلف (مشهد من مسرحيات بيتر بروك)

السباق هو الكيفية التي يسهم فيها كل من المسرح ومنتقيه في خلق هذه التغيرات، إضافة إلى الكيفية التي يتلاءمون بها مع هذه التغيرات، ومن ثم فإن من المجدي أن نخلص بعض الأطروحات النقيضة لتلك المناهج التقليدية التي غالباً ما تفصح عنها تحليلات النقاد.

إن عمليات الاختبار والتجاوز والإستبعاد التي تتعرض لها العروض المسرحية من طرف متلقي المسرح تشير جميعاً إلى تنوع الممارسات التي تشكل العرض المسرحي، وتؤكد الحاجة إلى منهج نقدي أكثر إبداعاً من المناهج السائدة الآن، وهو مطمح لن يتحقق بسهولة، خاصة في عالمنا العربي الذي ما زالت أساليب تدريس النقد المسرحي ومناهجه في المعاهد والكليات المتخصصة بالمسرح فقيرة جداً.

## كاتب جزائري عائد من الموت يكتب أسرار «أناشيد الملح»

ورغم مصادقة البرلمان الجزائري، في 2009، على قانون يجرم الهجرة غير النظامية ويعاقب أصحابها بالسجن لفترة تزيد عن ستة أشهر، وتجريم عناصر شبكات الهجرة غير النظامية بالسجن لمدة خمس سنوات، يستيقظ الجزائريون في السنوات الأخيرة على أخبار توقيف أو غرق أو وصول مهاجرين إلى السواحل الأوروبية.

**شهادة حية حول الهجرة السرية تفتح أسئلة، أكثر مما تعرض إجابات، وتوسع من الاستفهامات حولها**

وفي ظل غياب إحصاءات رسمية جزائرية حديثة حول عدد "الحراقة"، كشف آخر تقرير للرابطة الجزائرية لحقوق الإنسان (غير حكومية)، في 18 ديسمبر الماضي، أن 2160 مهاجراً غير نظامي غرقوا أو أصبحوا في عداد المفقودين منذ مطلع 2018.

وذكرت الرابطة في تقرير لها أنه تم إحباط محاولة هجرة أكثر من 8217 شخصاً بين عامي 2015 و2018، وأفادت أنه تم توقيف 14 ألف جزائري على حدود أوروبا في 2017، و12700 خلال 10 أشهر من 2018.

وأكد المتحدث أن المحاولة انطلقت من إزمير (غربي تركيا)، حيث بدأ اكتشاف عالم الهجرة السرية، كتب رمضاني توصيفات دقيقة عن المأساة التي يعرفها المهاجرون غير النظاميين، قسوة الطقس وفضاظة المهزبين وترصد الأمن لهم.

وذكر أن "أولى محاولات الوصول إلى إحدى الجزر اليونانية القريبة من الساحل التركي لم تكن إلا اختباراً لاكتشاف رهبة البحر وصراخ الأطفال والسوسة ورداء المركب ولا مبالاة قائدها".

ولفت إلى أنه "عند كل محاولة تزداد ضراوة البحر وجشع المهرب والرغبة في تحقيق الحلم الذي تجسد بعد بلوغ المؤلف جزيرة ساموس اليونانية".

وفي مقابلة مع "المساء" (عاصمة اليونان) رغم صعوبة المهمة، وأوضح قائلاً "من أثينا إلى

تيسالونيكي غربي البلاد إلى أقصى شرقها بمدينة باتراس حتى دخول العربي رمضاني السجن، ثم إجراؤه لعملية جراحية إلى غاية عودته إلى الجزائر.

ومؤلف "أناشيد الملح" العربي رمضاني، مواليد 1986 بمحافظة المدينة (جنوبي العاصمة الجزائر)، خريج كلية الإعلام في 2008، يكتب مقالات في السياسة والثقافة، حُرِبَ الهجرة غير النظامية وكتب عنها، فوقع "أناشيد الملح" أول إصداراته.

التي شاهدها، وكتب عن مأساة العيش بين ضفتين، وعن حلم الوصول للضفة الأخرى". وسرد خطيبي على لسان "الحراق" أن البداية كانت من تركيا، نقطة العبور المعروفة لدى المهاجرين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب شرق آسيا.



حكاية الجثث الحاملة (لوحة للفنان جوني سمعان)

واستطرد قائلاً "بحث العربي عن الحرية، فعثر على التسماعج. لم يكن سفره ممتعاً، فقد نجا، أكثر من مرة، من الشرطة، ومن حرس الحدود، لكنه عاد في النهاية ليذكرنا بقصص الناجين".

وأشار المتحدث إلى أن "صاحب العمل كتب حول ما بقي من سير الجثث،

الهجرة السرية أو ما يصطلح على تسميته في شمال أفريقيا بـ"الحرقه" عالم غامض، نهاية الموت في الغالب، وأحياناً يصل بعض الناجين إلى الجنة الوهمية التي يقصدونها، ألا وهي أوروبا. ليروا حكايات بعضها أغرب من الخيال، حول رحلة الموت التي يشقونها.

في سبتمبر الماضي، عن منشورات "المتوسط" بميلانو بإيطاليا، ويقع في 355 صفحة من الحجم المتوسط. وقال خطيبي، للأناضول، إن "أناشيد الملح" هو باكورة أعمال الكاتب الجزائري العربي رمضاني (33 سنة)، الذي خاض قبل عامين، وأحد من أحلك التجارب، و"حرق" (هاجر بطريقة غير نظامية) عبر البحر بغرض بلوغ أوروبا.

وأشار خطيبي، إلى أن "العمل بدأ من خلال سلسلة قصص نشرت في مجلة "نفحة" الإلكترونية، قبل أن يتحول إلى كتاب، وسيكون متوفراً في معرض الجزائر الدولي للكتاب 24 نهاية أكتوبر الجاري".

وفي مقدمة العمل قال خطيبي إن "العربي رمضاني سافر، في البحر، وعاد، وأتم الرحلة بأن كتب هذه الشهادة (العمل)، التي تفتح أسئلة، أكثر مما تعرض إجابات، وتوسع من الاستفهامات، التي تقفز إلى مخيلتنا".

وأضاف "وتبنيها أن البحر قد ازداد ضراوة، في قبض الأرواح، وطراوة في قذف الحكايات، لقد سافر، في البدء، ميتاً، فعاد حياً".

الجزائر - صدر، مؤخرًا، بإيطاليا، أول كتاب لمهاجر غير نظامي جزائري، عنوانه "أناشيد الملح - سيرة حرق"، سيكون متوفراً في النسخة 24 من معرض الجزائر الدولي للكتاب الذي يستمر من 30 أكتوبر الجاري إلى 9 نوفمبر المقبل.

والعمل يتناول سيرة أدبية واقعية لشاب (العربي رمضاني مؤلف الكتاب) اختار الهجرة بحراً من الجزائر إلى أوروبا، بحثاً عن الحرية وإثبات الذات قبل أن يرجع إلى وطنه.

ويستعرض المؤلف مختلف الصعوبات والمعاناة التي تطال "الحراقة" في رحلتهم نحو ما يلقبونه بـ"الجنة الموعودة". وصدر الكتاب، الذي قدّمه الروائي الجزائري سعيد خطيبي،